ابن زمـــرك : شـــاعر الحمـــراء

الاستاذ حمـدان حجـاجي
استاذ بجامعة الجـــزائر
معهد التـرجمة

لمحـــــة تـــاريخيـة :

● في القرن الثامن الهجري كانت مملكة غرناطة تتمتع بالاستقرار والهدؤ، ويرجع الفضل في ذلك الى الاميرين السابع والثامن وهما ابو الحجاج يوسف وابنه محمد الخامس الغني بالله .

وان سنة 773 هـ الموافقة لـ 1333 الميلادية شهدت ارتقاء ابي الحجاج على العرش من جهة وزيادة ابي عبد الله الصريحي المعروف بابن زمرك من جهة اخرى .

وقـد كان ابـو الحجاج مشهورا بالذكاء وحسن التدبير في الميدان السايسي وبمليه الى الآداب والعلوم والفنون . وهكذا فقد جمع ، مامن شأنه ان يضمن السعادة والهناء لمملكته ورعيته . وبالفعل فان المؤرخين متفقون على القول بأن غرناطة عاشت تحت ظله اسعد اوقاتها .

ففي الميدان السياسي توصل ابو الحجاج الى ابرام معاهدة سلمية مع العدو المسيحي ، كما توصل في نفس الوقت الى اتفاق بينه وبين الملك المريني ابي الحسن بالمغرب . هذا مع استثناء حادثين قاسيين كان لهما تأثير أليم على المملكة الغرناطية . ونشير بذلك الى واقعة طريف وانهزام الجيوش الاسلامية امام الفونس الحادي عشر القشتلي سنة 743 هـ ثم كارثة الوباء التي اصابت الغرناطيين سنة 749 هـ .

وفي الميدان الاقتصادي فان غرناطة كانت تحظى بثروات غزيرة زراعية كانت او معدنية كما كانت تحظى بحركة تجارية نشيطة وفرت لها عائدات ضخمـــة ضمنت لها الرفاهية والرخاء .

واما الميدان الاجتماعي فهو مرتبط بالميدان الاقتصادي فازدهار هذا الاخير له انعكسات حسنة ايجابية على المجتمع . وبالفعل فان الغرناطيين كانوا يتمتعون بمستوى معيشة مرتفع فكانت حياتهم حياة راقية رغدة ..

وفي الميدان المعماري فبأمر ابي الحجاج شيدت أعظم منشآت قصر الحمراء الى جانب المدرسة العظمى بكر المدارس بحضرته كما بنى الحصن بقصبة مالقة.

واما الحركة الادبية والفكرية فكانت مزدهرة في هذه الفترة الزمانية حتى ذهب البعض الى المقارنة بين بلاط غرناطة وقرطبة في عصرها الذهبي.

فقد خلف لنا هذا العصر اسماء شعراء وادباء الفتها الآذان وصداها لازال يسمع الى الآن ولنكتف على سبيل المثال بذكر ابن الخطيب وما ادراك. وابن الجياب من بين الوزراء والامير يوسف وابن الاحمر صاحب نثير الجمان من بين الامراء. وابن خاتمة الانصاري وابن لب واخيرا ابن زمرك الذي هو موضوع بحثنا. وحصيلة القول فعلينا بالرجوع الى ما ألفه ابن الخطيب ولا سيما «الكتيبة الكامنة. فيمن لاقيناه بالاندلس من شعراء المائة الثامنة» لنستغني عن اي تحليل في هذا المجال اذ وردت تآليفه مرآة لما كان يزخر به هذا المجتمع في شتى الميادين.

وظاهرة اخرى من الجدير ان نشير اليها هي ارتباط الشعر بالغناء فانتشار الشعر في مختلف طبقات المجتمع قد ساعد على انتشار الغناء وهذا ما كان سببا في رواج فن الموشحات تلك القصائد التي تحرر فيها منتجوها من القافية الواحدة والقيود العروضية المرهقة والتي لم يتجافها اكبر شعراء ذلك الزمن لاستعذابها وتذوقها من طرف الخاص والعام ولنذكر ابن الخطيب مرة اخرى، وابن زمرك فكلا هما خلف لنا موشحات من ارقى ما قيل في هذا اللون الشعري.

واما الفنون فقد بلغت أوجها في عصر بني نصر. الم يكن قصر الحمراء بغرناطة البرهان الناطق على براعة الفنانين الاندلسيين في التشييد والابداع براعة قد انفردوا بها اذ لازالت الي يومنا هذا تثير الاعجاب لدى القريب والبعيد من الاجانب وبالاحرى من المسلمين.

ابن زمـك : نشأتـه وتكـــوينه

ففي هذا المحيط المثـالي ـ ان صح هذا التعبـير ـ نشـأ في الرابع عشر من شوال سنة 733 هـ بربض البيازين تجاه الحمراء ابو عبد الله محمد بن يوسف الصريحي المشهور بابن زمرك.

والمعروف عن أسرته انها من شرق الاندلس وشاء القدر ان تهاجر الى غرناطة كغيرها من الأسر الاسلامية لانقاء شر العدو المسيحي الذي أستولى على أراضيها وأموالها.

ولا نعرف عن والديه شيئا يذكر ما عدا ما قاله ابن لسان الدين بأن ابا ابن زمرك كان حمارا مكاريا حدادا بالبيازين، ففكر الوالد باديء بدء في تعليم ابنه هذه المهنة الوضيعة ليساعده في حياته الشاقة. ولكن ابن زمرك كان صبيا نحيلا لا يتمتع بصحة جيدة. وهذا ما أدى والده الى توجيه إبنه الى الكتاب لعله يوفق في الدراسة فيصبح عالما وأديبا.

وهكذا التحق إبن زمرك بأقرانه وتابع المناهج السائدة انذاك. والجدير بالذكر هو أنه اثار انتباه معلميه بما ابداه من ذكاء وجد في العمل حتى اصبح يشار اليه بالبنان، فحفظ القرآن

الكريم ودرس الحديث الشريف ثم النحو واللغة والادب ولا سيما الشعر. وقد اثنى عليه المترجمين له من بين اساتذته ينبغي ان نخص بالذكر ابن الخطيب من جهة وابن مرزوق التلمساني من جهة اخرى. فالاول في الادب والثاني في الحديث والتصوف.

وقد لعب هذان الاستاذان دورا اساسيا في ترقية ابن زمرك اذ اصبح هذا الاخير مقربا ومبجلا لديهما، ويعود الفضل لهما في تعيين تلميذهما كاتبا لابن سالم الامير المريني القائم بغرناطة بارادة ابن عنان الذي ابعده عن فاس عاصمة الدولة المرينية حفاظا على عرشه.

وبقي ابن زمرك هكذا مؤديا مهمته على احسن وجه ومغتنما كل الفرص للتعبير شعرا عن اعترافه للمحسنين اليه. وقد وردت في ماتبقى من انتاجه شواهد عديدة على ذلك الى ان طرأت حوادث قلبت الاوضاع رأسا على عقب. ونشير بذلك الى عودة ابي سالم الى فاس وارتقائه على العرش بمساعدة ابن مرزوق التلمساني والي ثورة بلاطية تمت بخلع الغني بالله الذي لم ير السلامة بنفسه الا بمغادرة غرناطة واللجوء بفاس. وكان ذلك في شهر ذي الحجة سنة 760 والجدير بالذكر ان ابن زمرك كان من بين الذين رافقوا الملك المخلوع في هجرته. وقد روى لنا ابن خلدون الكاتب انذاك لابي سالم ما شاهده من حفاوة استقبال اللاجيء السابق للاجيء الحاضر.

وهكذا وجد ابن زمرك نفسه بين اصدقاء كان بيدهم الحكم فاستمر في سلوكه معهم قاضيا وقته في التردد عليهم وفي حضور حلقات الدرس لتوسيع معلوماته.

وبعد سنتين اي في شهر شوال سنة 762 هـ شاء القدر ان يعود الملك المخلوع الى الاندلس فاستقر برندة مدة ثم دخل غرناطة في شهر جمادى الثاني سنة 763 هـ، فحافظ على ابن الخطيب كوزير له، وعين ابن زمرك كاتب سر له.

ولكن انطلاقا من سنة 773 هـ بدأ الجو يتعكر بين الدولتين النصرية والمرينية. ويعود ذلك حسب ما يبدو الى اقناع الغني بالله بأن وزيره ابن الخطيب كان يسعى به عند الامراء المرينيين. فخشي ابن الخطيب على نفسه وفضل مغادرة غرناطة ملتحقا بتلمسان حيث استقبله ابو فارس عبد العزيز المريني بحفاوة. وهذا سلوك لا يغتفر فصمم الغني بالله على عقاب وزيره السابق. فكان عليه ليتم ذلك ان يحصل على تسليم المجرم. ولكن كان لابد من إقناع ابي فارس بذلك.

فبدأ الامير النصري بتعيين ابن زمرك في منصب الوزارة. ثم كلفه بالقيام بهذه المهمة. وهكذا وجد ابن زمرك نفسه في مأزق محرج فما كان عليه ان يفعل ياترى؟ فمن المسلم به ان الاختيار بين الطرفين كان صعبا ولاشك ان ابن زمرك وقف وقفة الحائر المتردد ولكن طموحه كان اقوى من وفائه لاستاذه البار به المحسن اليه، فقرر ان يرضي اميره فبذل كل ما في وسعه لاتلاف عدوه، وشاء القدر ان يوفق في سعيه بعد مغامرات شتى، اذ القي القبض على ابن الخطيب فسجن بفاس الى يوم مثوله امام لجنة بتهمة الزندقة. ونجد من بين اعضاء هذه

الجنة ابن زمرك الذي آل اليه دور المستنطق. ولكن مهما كانت الحجج فلم يحكم على ابن الخطيب بالاعدام ورد الى سجنه الا ان اعداءه لم يقتنعوا بهذه النتيجة فأرسلوا اليه من اخرجه من سجنه ليلا وقتلوه خنقا ثم احرقوه وكان ذلك في نهاية سنة 776 هـ

فعاد ابن زمرك غرناطة ووجد المجال مفسوحا امامه فأصبح ذلك الرجل القوي يخشاه القريب والبعيد لانفراده بثقة الامير به. وهكذا عاش في ظل الغني بالله بغرناطة ما يزيد عن ثلاثين سنة مسيرا شؤون المملكة احسن تسيير ضامنا لغرناطة الهدنة والسلام وذلك بإبرام عقود الصلح مع المسيحيين تارة ومع المارينيين تارة اخرى وهذا الى جانب سياسة التدخل في شؤون الدولة المرينية احيانا عاملا بالقول المأثور : «فرق تسد».

ولكن ابن زمرك فوجيء سنة 793 بوفاة من كان يستمد منه قوته، وتفطن لما سيعانيه من طرف الذين ظلمهم واهانهم زمان غطرسته، فحاول ان يستميل ابا الحجاج بن يوسف الثاني الامير الجديد. ولكن لم يلب هذا الاخير دعوته فعزله من منصبه وسجنه لارضاء العدد العديد من اعدائه المصممين على الانتقام منه.

ومكث ابن زمرك عشرين شهرا سجينا بالميرية الى ان حن عليه ابو الحجاج فاطلق سراحه وعاد ابن زمرك الى منصب الوزارة مرة ثانية ثم مرة ثالثة في عهد محمد السابع وكان ذلك سنة 795 هـ.

ويبدو ان ابن زمرك استخلص في السنوات الاخيرة هذه عبرة اذ تخلى عن كبريائه واعتداءاته وعامل اعوانه معاملة حسنة. ولكن سرعان ما عاد الى ماكان عليه. فتجبر وطغى حتى خالج الشك محمدا السابع وتظاهر له ان وزيره يكن له العداوة ويتآمر عليه وعاقبة ذلك لاتكون الا سيئة. وبالفعل فإن ابن زمرك فوجيء ليلا وهو في بيته بين اهله تاليا آيات من القرآن اذ دخل عليه رواد الملك الغرناطي بسيوف مشهرة فقتلوه مع خدامه وابنيه بمرأى زوجاته وبناته وذلك بعد سنة 795 اذ لم نعثر على تاريخ مضبوط مدقق لوفاته.

لقد وجد من قال ان الله تعالى اخذ بحق ابن الخطيب في العاجلة قبل الآجلة، وهذا المقري الذي يقارن بين ظروف هذا وذاك فقال : «فقتلة ابن زمرك افضع من قتلة ابن الخطيب لان هذا قتل بين عياله واهله وقتل معه ابناه ومن وجد من خدمه، ولسان الدين رحمه الله تعالى خنق بمفرده وعند الله تجتمع الخصوم وهو العفو الغفور».

انتاج ابن زمـــرك :

قد اهتم المؤرخ ابن الاحمر بعد وفاة ابن زمرك بجمع ما خلفه هذا الاخير من آثار رغبة منه في تخليد ما قيل عن مآثير الدولة الناصرية بصفة عامة وعن جده الغني بالله بصفة خاصة. وهكذا توفر لديه ديوان ضخم سماه «البقية والمدرك من شعر ابن زمرك» فالبقية ـ على حد تعبيره ـ كل ما بقي بعد هلاكه وتخطته الحوادث وشح الدهر بامساكه. والمدرك لاجل ما ترك في مبيضاته ولم يخرجه في حياته.

وهـذا الديوان الذي اطلع عليه المقري بتلمسان ووصفه بالضخم لم يعثر عليه بعد، ولكن من حسن الحظ فان كمية وافرة احتفظت لنا في كتب التراجم ولا سيما في كتاب المقري نفسه اي في نفح الطيب وفي ازهار الرياض مع اضافة موشحات وقطع شعرية عثرنا عليها في مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر، فكان علينا ان نجمع ما تناثر هنا وهناك لتكوين ديوان يضم كل ما بقي من «البقية والمدرك» مطبوعا كان او مخطوطا. وهكذا تأتي لنا ان نجمع 3380 بيتا شعـريا الى جانب بعض الـرسائل. وهذه الكمية تسمح ـ من دون شك ـ للباحث او القاريء بأن يكتشف الميزات الادبية لهذا الانتاج. فان كانت القصائد المؤرخة معدودة فانه يمكن القول بأن هذا الشعر قد نضم في الفترة الزمانية التي تمتد من سنة 760 الى سنة 795. ويعني ذلك ان ابن زمرك كان في السابعة والعشرين من العمر فهو شعر رجل تم تكوينه رجل عالم بأسرار باللاغة والبيان.

واذا القينا نظرة على هذا الديوان لاحظنا ان ابن زمرك قد تعرض الى جميع الاغراض المعـروفـة في الشعر العربي. وكان الاطار لصياغتها القصيدة بمراحلها المعهودة من جهة والموشحة بقوانينها من جهة اخرى.

وان القسط الاوفر من شعر ابن زمرك جاء في المدح هذا مما لاغرابة فيه اذا ذكرنا المدة الطويلة التي قضاها شاعرنا بقصر الحمراء في خدمة الغني بالله الذي كان الموضوع الرئيسي لمعظم القصائد التي اطلعنا عليها.

لم يكن في وسع ابن زمرك ان يجدد هذا اللون الشعري من ناحية مضمونه واكتفى كغيره بترديد صفات معينة كان يرغب الممدوح في سمعها وتتلخص أهم هذه الصفات في النسب والشجاعة والكرم. ويسوغ لنا أن نتساءل لماذا هذه الصفات بالذات؟ فالجواب قد يبدو بسيطا.

فبالنسبة للنسب فأي ممدوح كان لا يجد عزا وشرفا ومفخرة حينما ينسب الى أصل عربي والعرب انذاك هم الفاتحون والاسياد واصحاب السلطة وأما الشجاعة فالا تصاف بها يدل على الاقدام والانتصار على العدو في عصر توالت فيه حروب قاسية مدمرة. ويبقى الكرم وهو من الصفات التي اولاها المادح عناية كبرى فتوسع في ذكرها طولا وعرضا وما يفسر هذا التأكيد على هذه الصفة هو أن الشاعر كان ينتظر من ممدوحه مكافاءة تكون معنوية أو مادية. فهي معنوية إذا كان الشاعر شاعرا رسميا منخرطا في حاشية الممدوح وهي مادية إذا كان الشاعر شاعرا عابرا ومهما كان الأمر فالشعر كان انذاك وسيلة من وسائل العيش بالنسبة للعدد العديد من الشعراء.

ولنذكر على سبيل المثال بعض الابيات صور فيها ابن زمرك سخاء محمد الخامس :

أجمـلت في هذا الـصـنـيع عوائـدا ... الجـود فيهـا مجمـل ومـفـصّـل
أنـشـأت فيهـا من ندالك غمائـما ... بالـفـضـل تنشـأ والسـماحـة تهمـل
فجّـرت من كفـيك عشرة أبـحـر ... تزجي سحـاب الجـود وهـي الأنمـل
من قاس كفـك بالـغـمام فإنـه ... جهـل الـقـياس ومثـلهـا لا يجهـل
تسـخـو الـغـمام ووجـهـهـا متـجـهّم ... والـوجـه منـه مع الـنـدى يتـهـلل

وينبغي أن نضيف إلى القصائد المدحية قصائد أخرى سميت بالمولديات لان الممدوح فيها هو النبي ﷺ. وهذا اللون الشعري حديث العهد بالنسبة للألوان الاخرى اذ لم يظهر الا في بداية القرن السابع الهجري وقد اعتمد ابن زمرك في ذلك على ماورد في القرآن الكريم وكتب السيرة النبوية للتذكير بما منّ الله به على رسوله من خصال ومعجزات انفرد بها فيقول مثلا :

ذو المعجزات الغر والآي التي ... أكبرن عن عد وعن إحصاء
وكفاك ردّ الشمس بعد غروبها ... وكفاك ما قد جاء في الاسراء
والبدر شق له وكم من آية ... كأنامل جادت بنبع الماء
وبليلة الميلاد كم من رحمة ... نشر الا لاه بها ومن نعماء
قد بشر الرسل الكرام ببعثه ... وتقدم الكهان بالانباء
أكرم بها بشرى على قدر سرت ... في الكون كالارواح في الاعضاء

ويأتي في المرتبة الثانية شعر الغزل وقد امتثل فيه ابن زمرك الى ما كان يستميل العرب فيطلعنا من جديد على أصول الجمال واصفا الحبيبة وصفا دقيقا يثير الاعجاب بحيث لا مجال للوم العاشق على ما يعانيه من الآم بسببها. وتجدر الاشارة الى ان ابن زمرك قد خلط في غزله بين الجنسين كما كان معمولا به عادة متفاديا ما يمس بكرامة الانسان. فقال مثلا :

نفسي الفداء لشادن مهما خطر ... فالقلب من سهم الجفون على خطر
فضح الغزالة والاقاحة والقناز ... مهما تثنى او تبسم او نظر
طالعته في روضة كخلاله ... والطيب من هذي وتلك قد اشتهر
وكلاهما يبدي محاسن جمة ... ملء المشام والمسامع والبصر

ونلاحظ من هنا ان ابن زمرك قد مزج بين الاغراض الغزالية والطبيعة التي كان مغرما بها الى حد بعيد مقتديا في ذلك بابن خفاجة (1) الجنان الذي له فضل المتقدم في هذا الغرض. وقد وفق مرارا الى صياغة أبيات ذات طرافة أكيدة. فلنتأمل هذا النموذج الشعري الذي يغنينا من دون شك عن أي تعليق حيث صور لنا ابن زمرك قانية وعود بيدها :

والعود في كف النديم بسرّ ما ... تلقي لنا منه الانامل قد جهر
غنىّ عليه الطير وهو بدوحه ... والآن غنىّ فوقه ظبي أغر
عود ثوى حجر القضيب رعى له ... أيام كانا في الرياض مع الشجر
يسبي القلوب بلفظه وبلحظه ... وافتنتي بين التكلم والنظر

والى جانب هذا فقد تعرض ابن زمرك الى الموشحات كما اشرنا اليه سابقا وهي قصائد تطابق القصائد السابقة الذكر من حيث اللغة والقواعد والعروض ولكن تخالفها في ترتيب الابيات وفق مقاطيع خاضعة لقوانين معينة والجدير بالذكر هو ان الشاعر الموشح لم يتقيد بقافية واحدة وكانت لديه الحرية التامة في تنظيم وترتيب مقاطعه.

ومن خلال هذه الموشحات يتجلى لنا ابن زمرك الوصاف البارع المغرم بجمال الطبيعة وبطبيعة غرناطة على وجه الخصوص اذ خصص لها أربع موشحات تغنى فيها بأشجارها وأزهارها ومياهها وطيورها المغردة وان هذا الجانب الشعري يذكرنا مرة اخرى بابن خفاجة اذ استخدم شاعرنا الطبيعة في كل مكان وفي كل أوان ومنها كان يغترف مختلف الصور بملئى راحتيه فيبذرها من هنا وهناك بمهارة فائقة فجاء شعره عبارة عن تحفة رائقة.

قف بالسبيكة وانظر ما بساحتها ... عقيلة والكثيب الفرد جاليها
تقلدت بوشاح النهر وابتسمت ... أزهارها وهي حلي في تراقيها
وأعين النرجس المطلول يانعة ... ترقرق الطل دمعا في ماقيها
وافتر ثغر أقاح من أزهارها ... مقبلا خد ورد من نواحيها
كأنما الزهر في حافاتها سحرا ... دراهم والنسيم اللدن يجبيها

وقال في نفس الموضوع من موشحة :

غرناطة منزل الحبيب ... وقربها السؤل والوطر
تبهر بالمنظر العجيب ... فلا عدا ربعا المطر ا
عروسة تاجها السبيكة ... وزهرها الحلي والحلل
أيدها الله من مليكه ... تملكها أشرف الدول

خلاصة

وفي النهاية يسوغ لنا أن نلاحظ أن ابن زمرك لم يكن الا ذلك الوزير الماهر والسياسي الظافر وانما كان أيضا ذلك الشاعر البليغ والموشح الموفق باتم معنى الكلمة. الا أنه ينبغي أن نميز بين المداح وبين الوصاف للطبيعة، فان كان الاول يبعث في النفس السآمة، فالثاني يملأ النفس طربا وغبطة، ويعود هذا الى أن الغاية من المداح أن يرضى غيره، وأما الغاية من الاوصاف ان يرضى نفسه وبالتالي فالشاعر المقيد ليس كالشاعر الحر فذاك مقلد وهذا مبدع، وآفة الأدب العربي ان اضطر أدباؤنا الى الارتزاق بشعرهم.

ولو اقتصر ابن زمرك على المدح لما استحق الا القليل من اهتمام الباحثين، فدراستنا للمفردات المذحية تبين أنه كرر ما لنا علم به فكانت محاولته بعد بذل جهود مضنية أن يوفق في التعبير على غرض ما بما يثير اعجاب ممدوحه فكان همه الوحيد بالكيف لا بالمضمون.

ولكن من حسن الحظ فان ابن زمرك قد خلف لنا شعرا من طراز آخر اهتم فيه بوصف الطبيعة برهن فيه على براعته وتفننه واحساسه اللطيف. فان كان مقتديا باستاذه ابن خفاجة فانه قد وفق مرارا الى طرافة أصيلة ولا سيما في أسلوبه السلس الغني بالصور الرائقة العذبة، ويبدو لنا ذلك جليا في موشحاته الشيقة، وان المؤرخين والنقاد لذوقهم السليم استشهدوا دائما عند الكلام عن ابن زمرك بهذا اللون من شعره.

ولقد تمتع ابن زمرك بالشهرة وبعد الصيت وهو لازال على قيد الحياة. وأي شاعر حظي بما حظي به ابن زمرك؟ ألم ير شعره كاسيا الخلع الفاخرة وجدران الحمراء الخالدة؟ ومن القسط أن نقول بأن شهرته غير مغتصبة ومكانته قديما وحديثا مرموقة. الا أن معه «غربت الشمس بالاندلس» على حد تعبير سهير القلماوي وهذا المستشرق الشهير غارسية قوماتز الذي يأتيها بالخاتمة حينما يقول : «ان ابن زمرك كان آخر شاعر عظيم في الاندلس ومعه احتضر الشعر الاندلسي مجهدا عبر القرون، وكان هذا الاحتضار مواكبا لاحتضار كل مظاهر الابداع في الفكر الاسلامي».

وبالله التوفيق

حمدان حجاجي
أستاذ بجامعة الجزائر
معهد الترجمة

(1) نشأ بجزيرة شقر في طواحي بلنسية في 450 وتوفي بها في 533 هـ وكان ابن زمرك معجبا به فحذا حذوه في وصفه. راجع درستنا حول حياة واثار ابن خفاجة الإندلسي الطبعة الثانية 1982 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر.